وداعاً أبا سدير

عبدالرزاق عبد الواحد

في وداعك جبرا
سأستحضر الآن بغداد من عمق خمسين عامْ
لتلقي عليك السلامْ
شناشيلُها، وأزقّتها، وفوانيسها في الظلام
وقواربُها السابحات لأمّ العظام[1]
بدرابكها، والهلاهل،
والشّمع يُسرَج في كَرب النّخلِ
أستحضر الآن بغداد
من نوم خمسين عامْ
لتبصر أنّ الفتى الجاءها من بلاد الغمام
وفى، فقضى عمره بين أحضانها
وأغواهُ يوماً دجاها فنامْ..

سأوقظُ بغداد جبرا
سأوقظ مقهى حسن عجمي الآن
ومقهى الرشيد
والبرلمان[2]
وألتمس الآن «بدرا»
أقول له إن جبرا
وحيدٌ بحفرتهِ
وهو لم يألف الموتَ بعدُ
فساعِدْهُ
إنّ وليد بن مسعود يقبلُ كلَّ الفواجعِ
إلا فجيعةَ أن يتركوَهُ وحيداً
فساعدهُ

سوف يجيئك «بدر» كعادتهِ
وأوراقه البيض تحت وسادتهِ
قد يمرُّ على عجل «بابن مردان»[3]
يخبره أنّ جبرا أتى

وتعلمُ أنّ «حسيناً» سيفزع كالطفل
يفزع أهل القبور جميعاً
ويجهل للآن
زهرةُ مردان
أنّ القبور
وأنّ القصور
عالمٌ غير عالمنا

يجهل زهرةُ مردان
أنّ قصائده العاريات اكتسَينَ قلوبَ العذارى[4]
وقلوب السكارى

---

(١) أمّ العظام: جزيرة في نهر دجلة في قلب بغداد.
(٢) أسماء مقاهٍ مشهورة في شارع الرشيد، كانت تضج بالأدباء آنذاك.
(٣) حسين مردان: شاعر عراقي كبير توفي في أواخر السبعينات.

وقلبو المحبّين
يجهل أنك جئتَ له بندى العاشقين
وليد بنَ مسعود..

وأودعْت كالناس قبرا
وموتك لا يشبه الموتَ جبرا
رأيتُ إليك خلال الشهور الأخيرةِ
تورقُ.. تورقُ
حتى انحنتْ تحت أحمالهنَّ جميعُ غصونِك
هل كنت تركض للموت جبرا بكلِّ حياتك؟؟
أم كنت تحجبُهُ عنك
مختبئاً خلف نبضك
ومختبئاً خلف رفضك
حدّ الفزع

حسناً...
سأنادي «بلند» و «أكرم»
أدعو «رشيد بن ياسين»
أدعو «البريكان»(٥)
أسألهم أن يعودوا بذاك الزمان
من بطون المقاهي العتيقة
والتّخوت الغريقه
بالحكايات..
أيامَ كانت أعزَّ سعاداتنا
أن نؤلّب موجاً على جرفِهِ
ونثير أديباً على حرفهِ

كنتَ أنت،
ولم نكُ نشعرُ
محور كلِّ مشاكسةٍ
كنت ترطمُ غيماً بغيمٍ
وتنظر مبتهجاً كيف يشتعل البرقُ
ثم يهلُّ المطرْ...

الكتابة ليست بطَرْ
هكذا كنتَ توحي لنا
دون أن تتعالم جبرا
وكنّا نهيم بهذا الفتى الجاءنا من بلاد الغمامْ
وفي قلبه هاجسٌ لا ينام
أنَّ للحرف جمرتَهُ
أنَّ للشعر خمرتهُ
أنَّ من يكتب الشعر بين النبوءةِ والموت
قد يفقد الصوت
لكنه قطُّ لا يتنازل عن صولجان نبوءتهِ..
وها أنت ذا
بعد سبعين عاماً ونيف
وسبعين برداً وصيف
تتنازل عن عرش صوتك جبرا
وتسكن كالناس قبرا

وسلامٌ عليك
أنت عمرَكَ لم تتنازلْ وليدَ بن مسعود
عن نجمةٍ في يديك
ولهذا خشيت عليك من الموت جبرا
فكم كنتَ تقلقُ من أن يجيء
وما برحت بعدُ لؤلؤةٌ في محارتها
وهي ترنو إليك....

---

(٤) قصائد عارية: ديوان مشهور لحسين مردان.

(٥) بلند الحيدري: أكرم الوتري.. رشيد ياسين.. ومحمود البريكان: أصدقاء جبرا، وعصبته.. وهم طليعة التجديد في الشعر العربي المعاصر.